

لتكن صلاتنا خاشعة



الصلاة هي استحضار العبد وَقُفْتِهِ بين يدي رَبِّهِ، وحينما يقف العبد بين يدي الله، لا بد أن يزول كلُّ ما في نفسه من كبرياء، ويدخل بدلاً منه الخشوع، والخضوع والذلة سبحانه. والمتكبر غافل عن رؤية رَبِّهِ الذي يقف أمامه، والصلاة تحارب الاستكبار في النفس، لذلك كان مؤدَّى الصلاة أنْهَا تَرْكُزُ الخشوع في النفس. والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون. ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار. ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله، وليس من ذاته. والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم: اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها. (إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمران/ 140). ولذلك لا بد أن نفهم أن الإنسان الذي يستعلي بالأسباب سيأتي وقته لا تعطيه الأسباب، فالإنسان إذا بلغ في عينه وأعيُن الناس مرتبة الكمال اغترَّب بنفسه. نقول له: لا تغتر بكلمات نفسك، فإن كانت موجودة الآن فستغير غداً، فالخشوع لا يكون إلا لله. من هم الخاشعون؟ الخاشع هو الطائع لله، الممتنع عن المحرمات، الصابر على الأقدار، الذي يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمر لله وحده، وليس لأي قوة أخرى، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا

الكون له. الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب، والمعصية بالعقاب والعذاب؛ لأنّ الذي ينصرف عن الطاعة لمشتقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة. وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحُبٍّ، فيُهوِّنها الحقّ سبحانه عليه، ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة، لتهون عليه مشقتها، ويمدُّه سبحانه أيضاً بالمعونة. فالخاشع الخاضع ﷻ يستشعر حلاوتها، ولذلك كان رسول الله ﷺ (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول عندما يحين موعد الصلاة: «أرحنا بها يا بلال». والحقّ سبحانه يقول في الصلاة، وهي أُمُّ العبادات: (وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْخَاشِعِينَ) (البقرة / 45). إذن: عندما يأتي التكليف يكون شاقاً، وما دام شاقاً فهو بحاجة لصلابة إيمان وجَلَدٍ و يقين، بحيث يَعي أن ما قام به من عمل وإن كان شاقاً لكنه سيعطيه سعادة كبيرة جداً. لذلك عندما تتضخم الجزاءات في نفس المؤمن يُقبل على العمل بحُبٍّ. وسبحانه يقول: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون / 1-2). فالفلاح هو الفَوَّز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير، وأوّل أسباب الفلاح عند المؤمن هو الخشوع في الصلاة، فمسألة أداء الصلاة شيء مفروغٌ منه، لأنّ الصلاة علامة الإيمان. أما أن تكون الصلاة سبباً من أسباب الفلاح، فهذا يرجع إلى إقامتها لا أدائها، إقامتها على الوجه الأكمل الذي يرضاه مَنْ تُصلِّي له، ركوعاً وسجوداً وقياماً. وأوّل ظاهرة الفلاح هي الصلاة أيضاً، فعلاقة المؤمن بالصلاة ليس فيها كلام، فليس مؤمناً مَنْ لا يصلي، فالصلاة صفة لازمة من صفات المؤمن. ولكن الحقّ سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن فلاح المؤمن ليس في أداء الصلاة فقط، ولكن في الخشوع فيها. والخشوع هو سكينه القلب واطمئنانه، واستحضار أمره واقفٌ بين يدي الله ﷻ. والخشوع معناه اطمئنان القلب، ومعنى اطمئنان القلب سُكونه في مهمّته هذه، فلا يشغل بشيء آخر؛ لأنّ ما جعل لرجل من قلبين في جوفه. يقول تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...) (الأحزاب / 4). والجوارح تستمدُّ طاقتها من القلب الذي يمدُّها بالدم، فلو كان القلب مشغولاً بشيء آخر لَذَهَلَ عن الجارحة. والله تعالى يستحقُّ منّا ألا نشتغل عنه في فترة الصلاة القصيرة. ففي هذا الوقت القصير الذي يستحضرك ﷻ لصالحك حتى تكون في جَلْوةٍ مع ربك، لتأخذ طاقة الإمداد والمعونة وإشراقات النور، فتستكثر هذا الوقت القصير، وتنشغل فيه عن ربِّك. هذا لا يصحُّ، ولا يجوز أبداً، لذا كان الخشوع في الصلاة من سمات الصالحين. يقول المولى سبحانه: (إِنَّ السَّادِّينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) (الإسراء / 107-109). والأذقان جمع ذقن، والذقن هو الفكُّ

الأسفل. فساعة يخرون ليس على وجوههم فقط، ولكن على الوجه والأنف والذقن أيضاً، وهذا دليل على التمكن في السجود. (وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) (الإسراء / 109). أي: كلما سمعوا آية من القرآن ازدادوا خُشُوعاً وخشية. وهؤلاء يقول عنهم ربُّ العزَّة سبحانه: (إِنَّ رَمَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال / 2). والوجل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب في القلب، فذكر يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجَل، وهذا لا يتنافى مع قول الحق سبحانه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد / 28). ففي الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأنَّ ذكر الله تعالى يأتي بأحوال متعددة، فإنَّ كان الإنسان مُسْرِفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذي خالف منهجه. وإن كان الإنسان يُراعي حقَّ الله في كلِّ عمل قدَّرا الاستطاعة، فلا بدَّ أن يطمئن قلبه لحظة ذِكْرِ الله؛ لأنَّ اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. إذن: فالخوف أو الوجَل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال. ولذلك تجمعهما آية واحدة، هي قول الحق تبارك وتعالى: (اللَّهُ نُزِّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) (الزمر / 23). فالجلود تقشعر خوفاً ووجلاً مهابةً من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً في حنان المذَّان سبحانه وتعالى.